علاج الكَلَب

عند قدماء العرب

نظر تاريخي للاب لويس شيخو اليسوعي

قد عرف العرب منذ قدم الزمان — ولعلّهم زادوا معرفةً بذلك على سواهم — ذاك الداء العياء الذي تولّدهُ بنهشها بعضُ الحيوانات في هيجانها كالذئب وابن آوى والثعلب ولاسيّما الكلب الذي اليهِ نُسب الكَلَب. وهو لعمري من اشدّ وامرّ الادواء التي تصيب بني الانسان حتّى اذا ابتُلي بآفتهِ اختلفت عليهِ نوبات الاوجاع والخَبَل والجنون الى ان يفصم الموتُ حبل حياتهِ فيذهب ضحيّة دائهِ لا محالة

*

ولا نرى حاجةً الى وصف هذا الداء العضال وقد سبق الى تعريفهِ حضرة الاب دي قراجيسل (المشرق ١٦ [١٩١٣]: ٩١٢) وبيّن ما احرزهُ لهُ من الفخر بعملا بهِ الناجع ذاك الذي نقلنا ترجمتهُ الشائقة اعني بهِ لويس پاستور (المشرق ١٤ [١٩١١]: ٥١) وذكرنا في العام الماضي ٢١ [١٩٢٣]: ١٢٤١ ادكار المنوي لولدهِ. وهناك التفاصيل عن اكتشافهِ العجيب لجراثيم الكَلَب مع الطريقة الاكيدة لشفائهِ. فلتُراجع تلك الفصول في مظانّها

وانّما الغاية من كتابة هذا الفصل ان نروي ما ورد عن داء الكلب في عهد الجاهليّة وأوائل الاسلام وخصوصاً في شعر فحول الجاهليّة لنَسبر غور افوالهم ونستخلص منها بعض تخيُّلاتهم لهذا الداء والوسائل لمداواتهِ. فانهم جميعهم بعد حنين ابن اسحاق والرازي وابن سينا عرفوا اعراضهُ اتمّ المعرفة واجادوا في تشخيص الكَلَب المصاب بهِ من احمرار عينيهِ واسترخاء اذنَيهِ واندلاع لسانهِ وكثرة امابهِ وطأطأة رأسهِ وادخال ذنَبهِ بين رجلَيهِ ومشيهِ خانفاً كانهُ سكران وطلبهِ للماء وهو يفزع منهُ وحملهِ على كلّ شيء يراهُ فيعقرهُ ويعديهِ بدائهِ الى ان يموت منهُ

على انّ هذه الاعراض لم ترشدهم الى استطلاع حقيقة الداء وبيان جراثيمهِ القتّالة

وبحثوا عن الطرائق لعلاجهِ فذهبوا مذاهب شتى بلغ بعضها النهاية في الغرابة كماجين الثوم والبصل والرمّان والخلّ والعسل ومنها ما لا يخلو من بعض المعقول كشرْط الموضع ليسيل دمُهُ المسموم وكالضماد بدوَيبة الذراريح (cantharides) المسحوقة او أكلها في معجون العسل واشياء اخرى كثيرة يطول شرحها ممّا نقلهُ احد المستشرقين المسيو كاموسي في نيّف ومئة صفحة في عددين من المجلّة الاسيويّة الباريسيّة (١ ودخلت كلّها اليوم في خبر كان

ولعلّ اقدمَ ما جاء في ذلك ما رواهُ ابن قتيبة في عيون الاخبار (طبعة ستراسبورغ ١ : ٤٦٦) حيث قال :

« يلغني عن الخليل بن احمد انهُ قال : دواء عضّة الكلب الكَلِب الذراريح والعدس والشراب العتيق يُصنَع وقد ذكر كيف صَنعتهُ وكم يُشرَب منهُ وكيف يُتعالج به . . . قال ابو البقظان كان الاسود بن اوس بن الحسرة أتى النجاشيّ فلَسهُ دواء الكَلَب فهو في ولدهِ الى اليوم . فمن وُلدهِ المُحِلّ وقد داوى المُحِلّ عتيبةَ بن مرداس . . . »

*

بيد انّهُ ورد في الشعر القديم ولاسيّما الجاهلي وصف علاج يستوقف الابصار فيردّدهُ الشعراء كانهُ من المبادئ الاوّليّة التي لا شبهة في صحّتها فنذكر اقوالهم لعلّنا نجد لقائليها بعض الصواب . وذلك انهم يزعمون انّ دم المالوك والاشراف دواء شافٍ للكَلَب . واقدمُ ما نعرف من ذلك ما رُوي عن ابن عبّاس الكندي يلوم بني اسد على قتلهم ملك كندة حُجر بن عمرو ابي امرئ القيس الشاعر قال :

عَبيدَ العَصا جئتم بقَتْل رئيسكم تُريقون تامُورًا يشفاء من الكَلَبْ

ومثلهُ في القِدَم قول عوف بن الاحوص (الحيوان للجاحظ ٢ : ٣)

دماء القوم للكَلَبي شفاء

وقال عبدالله بن قيس الرقيّات :

عاودَني النَكسُ فاشتفيتُ كما تشفي دماء الملوك من كَلَبِ

(١ الطب H. Casussi : La Rage et son traitement chez les Arabes, J. As., 8e Serie, 1888[1] 344-400 et 1888[2], 253-304

ثمّ كثر هذا المعنى وأطلق على كلّ كريم وشريف. قال المتلمس في بني دارم:

من الدارميّين الذين دماؤهم شفاءٌ من الدّاء المَجَنَّةِ والخَبَلْ

وزعم انّ دماء الكرام المُهراقة في الحرب لا تمتزج بسواها لشرفها فقال:

أَحارثُ انّا لو تُشَاطُ دماؤنا تَرَيْلَنَ حتّى لا يَمَسَّ دمٌ دما

وقال بعض المُزَنيين ويُروى للحطيئة وللقاسم بن خبل:

هم حلّوا من الشرف المُعلّى ومن حَسَبِ العشيرةِ حيثُ شاؤوا
بُناةُ مكارمٍ وأساةُ كَلْم دماؤهمُ من الكَلَب الشفاءُ
فلو انّ السماءَ دنَتْ لمجدٍ ومَكرُمةٍ دنَتْ لهمُ السماءُ

وقال عبد الله بن زُبير يمدح عبيد الله بن زياد صاحب الكوفة يخاطب ناقتهُ:

حَنَّت لِتُهْ جعَني خَنْفي فقلتُ لها هذا أمامكِ فالقيهِ فتى العربِ
من خير بيتٍ عَلِمناهُ وأكرمِهِ كانت دماؤهمُ أشفى من الكَلَبِ

ومثلهُ للعبّاس بن مرداس يفتخر بشرف قومهِ:

واني من القوْم الذين دماؤهم شِفاءٌ لطلّاب التّرابِ من الوغَمْ

ويروى للعاصم بن الفريّة قولهُ:

وداويتُهُ ممّا بهِ من مَجَنّةٍ دمَ ابنِ كَهالٍ والنّطاسيُّ واقفُ

وكذلك المخضرمون والمولّدون. قال الكميت:

احلامكم لسقام الجهل شافيةٌ كما دماؤكمُ تشفي من الكَلَبِ

وقال الفرزدق في عشيرتهِ:

ولو تشربُ الكَلْبَى المراضُ دماءنا شفتْها وذو الحَبْلِ الذي هوَ أدْلَفُ

وقال ابن عتين في مدح بعض الكرام :

في ظلّ أبلَج يُستَسقَى الغمامُ بهِ فيستهلُّ ويَستشفي بهِ الكلِبُ

ومثلهُ البحتري يهنّئ بعض الامراء بالاقتصاد :

فليُهنِكَ البُرءُ مما كنتَ تألَمُهُ وليُهنِكَ الأجرُ عقبى صائبِ الوَصَبِ
لئن فُصِدْتَ ابتغاءَ البُرءِ من سَقَمٍ فقد ارقتَ دماً يشفي من الكَلَبِ

فترى انّ هذه الابيات تضربُ كلُّها على وَتَر واحد . وان طلبت لذلك شرحاً اجابوك بفرد لسان انّهم يزعمون انّ دماء الاشراف والملوك تشفي من عضّة الكَلْب الكَلِب . وكانوا اوّلاً يحصرون ذلك في ملوك معلومين كملوك الحيرة بني ماء السماء الناذرة او ملوك غسّان . قال صاحب الاغاني (١٣ : ٣٦) : « كانت العرب تقول : من اصابهُ الكَلَب والجنون لا يبرأ منهُ الى أن يُسقى من دم ملك » . ومثلهُ التبريزي في شرح الحماسة (ص ٧٢٥) : « يقولون انهُ لا دواء للكَلَب انجع من شرب دم ملك . وقيل في دوائهِ ان تُشرَط الاصبع الوسطى من يُسرى رجل شريف ويؤخذ من دمهِ قطرة على تَمرة فيُطعَم المعضوض فيبرأ وقيل انهُ يُسعَط بهِ » . وقد جاء الشفاء مخصوصاً ببعض بني المنذر قال ابن دُريد في الاشتقاق (ص ١٤) : « كان اذا اصاب احداً من العرب الكَلَب قطروا لهُ دم رجل من بني ماء السماء وهو عامر بن ثعلبة الازدي فيشفى »

ولعلّ القارئ يسأل ما نراهُ من الصحّة في كلّ هذه الشواهد وهل يوجد هناك سرٌّ خفيّ او مزعم باطل . نجيب على ذلك انّ البعض حملوا هذه الاقوال على المعنى المجازيّ يريدون بهِ انّ للملوك والاشراف دماً كريماً لا يصيبهُ فسادٌ حتى انهُ لو مُزج بغيرهِ أصلحهُ . وقد شرحوا ذلك لنوع آخر قال الجاحظ في كتاب الحيوان (٢ : ٣) : كان اصحابنا يزعمون انّ قولهم « دماء الملوك شفاء من الكلب » على معنى انّ الدم الكريم هو الثار المُنيم . . وداء الكَلَب الغيظُ والغضب فاذا ادرك ثأرهُ فذلك هو

الشفاء من الكلب وليس انَّ هناك دماً في الحقيقة يُشرَب ، لكنَّ الجاحظ يعترض على هذا الشرح بقول عاصم بن الفريَّة حيث يقول «وداويتـهُ ... دمَ ابن كهال والنطاسيُّ واقف» فدلَّ بهِ انهُ اشربهُ دم ابن كهال بحضور النطـاسيّ اي الطبيب فابرأهُ . قال الجاحظ : ولولا قول عاصم بن الفريَّة «والنطاسيُّ واقفٌ» لكان ذلـك التأويل جائزاً »

ومن ثمَّ يجوز شرح قولهم على المعنى الحقيقي دون المجاز . فانَّ الطبَّ في زماننا قد اثبت شفاء بعض العلل بأن يؤخذ من انسان او حيوان دمٌ صافٍ فيُحقن بهِ العليل فيبرأ . وعلى هذا المعنى يجوز تأويل الابيات السابقة بان يقال انَّ دماء هؤلاء الملوك صافية كريمة ولمَّا مزجوها بدم مُصاب بالكلَب طهَّرت دمهُ وابرأتهُ . ومن هناك انتقلوا الى المعنى المجازي فضربوا المثل بكل شريف وكريم ونسبوا الى دمه شفاء الكلب لشبههِ بدم الملوك صفاء . والله اعلم

وهنا لا نرى بدًّا من ان نروي عن معجم البـلدان لياقوت (٢ : ١٠) ما ذكرهُ عن جُبّ الكلَب وهي قرية من قرى حلب قال :

حدَّثني مالكُ هذه القرية انَّ الاسكافيَّ رسألته عمَّا يُحكى عن هذا الجب وانَّ الـذي سَمَّهُ كلاب الكلَب اذا شربَ منهُ برئ فقال : هذا صحيح لا شكَّ فيه . (قال) وقد حاءها منذ شهور ثلاثة انفس مكاريين يسألون عن القرية فدلُّوا عليهم . فلمَّا صاروا في صحرائهـا اضطرب احدُهم وجعل يقول لمن معه : اربطوني لئلاَّ يصل الى احدكم مني اذًى . وذلك انهُ قد كان تجاوز اربعين يومـاً منذ عُض فربط . فلمَّا وصل الى الجُبّ وشرب من ، تو مات . واماَّ الآخران فلم يكونا بلغا اربعين يوماً فشربا من ماء الجبّ فبرئا (قال) وهذه عادتهُ . اذا شرب منهُ من لم يبلغ اربعين يوماً برئ (قال) وهذه البئر هي بئر القرية التي يشرب منها اهلها »

وذكر ياقوت ايضاً (٢ : ٦٩) بين الادبرة دير الكلَب قال «هو بنواحي الموصل بينها وبين جزيرة ابن عُمَر من ناحية باعذرا من اعمال الموصل لهُ قلالي ورهبان كثير فمن عضَّهُ الكلب الكلِب وبودر بالحمل اليهِ وعالجهُ رهبانهُ برئ وان تجاوز الاربعين يوماً فلا حيلة لهم فيهِ»

فالظاهر انَّ لهذه المياه خاصَّةً لشفاء داء الكلَب اما بذاتها وإمَّا ببركة احد اولياء الله . وعلاج النابغة باستور اصبح اليوم النعمة الموحاة من الله لشفاء الكلَب

فلهُ تعالى الشكر على ما اوحى بهِ لخير عبادهِ